



كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.م.د. نهاد فخري محمود

اسم المادة باللغة العربية : النقد الأدبي القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Old Criticism

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: الاستحالة والتناقض عند قدامة بن جعفر

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية : The impossibility and contradiction at Qudama bin

Jaafar

مقرر الفصل الثاني

الاستحالة والتناقض عند قدامة بن جعفر .

جعل قدامة (الاستحالة والتناقض) من عيوب المعاني في الشعر، والتناقض أن يذكر في الشعر شيء ويجمع معه ما يناقضه، وهذا الأمر ينشأ:

١- عن طريق الإضافة كالأب والابن، والعبد والمولى .

٢- عن طريق التضاد كالشر للخير، والأسود للأبيض، والحار للبارد .

٣- عن طريق الوجود والعدم، كالعمى والبصر .

٤- عن طريق النفي والإثبات كقولنا: زيد جالس، وزيد ليس بجالس .

إنَّ الجمع بين هذين في معنى واحد أو شيء واحد غير مقبول، فلا يجوز مثلاً أن نصف أحداً بأنه أعمى وبصير في وقت واحد، وقد جاء في الشعر من الاستحالة والتناقض ما لا عذر فيه، لأنه جمع بين المتناقضات من جهة واحدة، فالتناقض الذي جاء عن طريق الوجود والعدم قول ابن هرمة:

تراه إذا ما أبصر الضيفَ مقبلاً يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ

فالشاعر منح الكلب ملكة الكلام في قوله: (يكلمه) ثم أعدمه إياها في قوله: (أعجم) ... ولو كان قدامة قد أدرك أن الشاعر لم يرد بقوله: (يكلمه من حبه) المعنى الحقيقي بل المجازي المجرى على طريق الاستعارة لما بدا له تناقض في الصورة، ومن الغريب أن نلاحظ أن قدامة لم يعط المجاز حقه

في التحليل فكأنَّ الشعر عنده خلو منه، فهو لم يتعرض لصور المجاز إلا فيما سماه (المعازلة) التي عدّها من عيوب اللفظ، والمعازلة عنده من عيوب الاستعارة الفاحشة كقول الشاعر :

وذات هدمٍ عارٍ نواشِرها تصمت بالماء تولباً جدعاً

فسمى الصبي (تولباً) وهو ولد الحمار، وكقول الآخر:

وما رقد الولدان حتى رأيتهُ على البكر يمرّيه بساق وحافر

فسمى رجل الإنسان حافراً وهو للحيوان

ويقول قدامة: (وقد استعمل كثير من الشعراء الفحول المجيدين أشياء من الاستعارة ليس فيها شفاعة كهذه، وفيها لهم معاذير إذا كان مخرجها مخرج التشبيه).

ورأيه مردود من أكثر من وجه، فالاستعارة في البيتين ليست في زعمنا فاحشتين فقد استعمل الشاعر الأول كلمة (تولب) استنارة لعطف السامع على هذا الصبي الفقير واستعمل الآخر كلمة (حافر) في موضع الهجاء والتحقير والسخرية كمل فعل المتبني في هجاء كافر .

وأسودُ مشفره نِصفَهُ يُقالُ له أنتَ بدرُ الدجى

فشبه شفة المهجو بمشفر البعير لكبر حجمها ورسم ذلك صورة ساخرة .

وقد لاحظ د. إحسان عباس مثل هذا عندما قال: (إن قدامة يهون من شأن الاستعارة)، ولعلّ تفسير ذلك يكمن في أن قدامة جعل الشعر - كما فعل أرسطو - قسماً من أقسام المنطق، ويقول أيضاً: (إن الاهتمام بالاستعارة يعني في بعض جوانبه الاهتمام بقوة الخلق عند الشاعر ولن نجد ناقداً مثل قدامة قصر حديثه كله على الشعر نفسه دون أن يلتفت إلى الشاعر أو المتلقي).

ولا ينبغي أن نقلل من قيمة هذه الملاحظة، إذ تترتب على ذلك مسألتان لا بد من الإشارة إليهما:

أولاً: الفصل بين الشعر من جهة والأخلاق والاعتقاد من جهة أخرى. أورد قدامة في ذلك حديثاً قال فيه: (وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعفة والرفث والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة...، وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب - مثلاً - رداءته في ذاته)، وقال أيضاً: (ووصف الشاعر هو الذي يستجاد لا اعتقاده، إذ كان الشعر إنما هو قول فإذا أجاد فيه القائل لم يطالب بالاعتقاد).

ثانياً: جواز التناقض في معاني الشاعر الواحد، يقول قدامة: (ومما يجب تقديمه أيضاً أن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين بأن يصف شيئاً وصفاً حسناً ثم يذمه بعد ذلك عندي يدل على قوة الشاعر في صناعته واقتدار عليها).

نستنتج من ذلك أن ما يجعل الشعر شعراً في رأي قدامة هو الشكل والصياغة وليس المعنى، يقول: (ومما يجب تقدمته وتوطيده قبل ما أريد أن اتكلم فيه أن المعاني كلها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم منها في ما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية، والشعر فيها كالصور كما يوجد في كل صناعة من أنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة).

